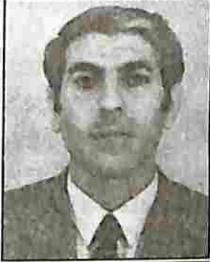


في مفهومات الحداثة*



د. شلتاغ عبود
ليبيا

مرت على أمة الإسلام مرحلة عصبية امتحنت فيها بأسس ثقافتها ووثابته تفكيرها، وكان لهذا نتائج خطيرة في الضم والصور والسلوك والتخطيط لمستقبل، تلك هي أشار الضرة الاستعمارية المباشرة والمدمرة، وفكرة الحكومات «الوطنية» التي لا تزال تمارس هيمنتها على الأمة بجسميات شتى، وتدجن نشاطات الحياة الفكرية والمادية في ضوء نشاطات «المثل الأعلى» الذي تقتدي به.. المثل الذي لم يكن لها حرية اختيار في أخذه، بل فرض عليها فرضاً، ولكنها توحى لنفسها أنها تتخذه طوعاً على أساس أنه طابع العصر، أو روح العصر.

ومن أراد أن يتصدى لايضاف هذا النزيف عن جسم الأمة، فلا بد من أن يرسم تصوراً أو مخططاً لتوجيه الثقافة وفق الرؤية التي تنسجم مع التكوين الحضاري للأمة، ووفق الواقع وضغوطه ومستجداته كذلك.

الأمة حتى يجري عليه التراث، وتنطبق عليه صورة التعامل مع التراث. بل إن الدين بصورته المنزلة هو شريعة سماوية تم إبداع التراث على هداها، وتم ما تم من رقي وحضارة في ديار الإسلام بوحي من توجيهاتها(١).

أما القدم والقديم فهو معيار زمني لا يرتبط بأمة معينة. فالأزمان المتعددة كل سابق للاحق منها يعد قديماً، وأمس هو قديم بالنسبة إلى اليوم، وما قبل مليون سنة هو قديم بالنسبة إلى ما قبل نصف مليون. والتقليد موقف إنساني من القديم والحديث معاً، فقد يقلد المرء إنساناً قديماً أو حديثاً، أو حضارة قديمة أو حديثة، فيسمى مقلداً حتى لو قلد نتاج آخر «تقليعة» في «الموضوعات».

والأمر مختلف مع الأصالة فهي لا ترتبط بزمن معين، بل ترتبط بقيمة عمل معين. فالعمل الأصيل ما كان مرتبطاً بشخصية مبدعة، ولم يكن فيه عالة على غيره. والعمل الأصيل - من جهة أخرى - مرتبط بالأصل «وأصل كل شيء نسبه الذي إليه يرجع، وله ينتسب. وجوهره وحقيقته ووثابته الباقية، والمستعصية على الفناء والزوال، فالأصالة في ثقافة ما، هي هويتها المتمثلة بـ «البصمة» التي تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى»(٢).

هذه هي مصطلحات العائلة الأولى. ولقد رأينا أنها جمعت في سلة واحدة، لغايات ترتبط بالتمويه وتزوير المصطلحات المقابلة لها في العائلة الثانية وهي الحداثة والمعاصرة والتجديد والجديد. والحداثة حالة أو موقف من الحالة الفكرية أو الثقافية التي

وموضوع الحداثة كتب عنه الكثير، واختلط فيه الحق بالباطل، واستخدمت فيه أدوات الممارك النفسية كلها، وكانت الضحية الأولى هي ثقافة هذه الأمة التي يراد لها ألا تكون أمة، بل شبح أمة.

كتب الأوروبيون عن الحداثة بصفاتها صناعة أوروبية ضمن ظروف تاريخية معينة، وتطورات شهدتها أوروبا منذ عصر نهضتها وتطورها الخاص حتى اليوم. ولا غرابة في هذا، فهم يدونون تاريخهم الفكري ومسار الثقافة عندهم، بل إنهم يتحدثون اليوم عن مرحلة ما بعد الحداثة بنسق التطور الفكري عندهم أيضاً.

ولكن ما بالنا كلما رصدوا محطات الصراع الثقافي في بيئاتهم سارعنا إلى نقل ما يدور عندهم إلى ساحتنا الفكرية والثقافية مع أن الساحتين مختلفتان، وصور الصراع مختلفة، واستجابة واقعا لنقل موضوعات الصراع الغربية غير ميسرة!؟

- هل التراث والقدم والأصالة والتقليد بمعنى واحد حقاً؟

الواقع ليس كذلك تماماً. فالتراث هو ما أبدعته أمة من الأمم سواء أكان إبداعاً مادياً أم فكرياً ضمن مرحلة تاريخية من مراحل حياتها. وهذا ينطبق على أمة الإسلام وعلى غيرها، ولسنا بصدد الحديث عما نأخذ من هذا التراث في مرحلتنا المعاصرة وما ندع، فلهذا مكانه من البحث، ولكن الذي له خصوصية متميزة في حضارتنا هو أن الدين قرأناً وسنة ليس مما أبدعته

تسبق الحالة التالية. وهي لا تخص زمناً معيناً أو بيئة معينة. فالإسلام مثلاً يمثل حالة حداثة بالنسبة إلى المرحلة التي سبقته من الجاهلية، ومثله الأديان الأخرى، وموقف أوروبا في عصر (التنوير) حالة حداثة، لأنه موقف من الكنيسة والإقطاع والدين نفسه. ولسنا هنا إزاء معيار صحة أو خطأ. المهم أنك أمام حالة تالية زمنياً. ومثلما تختلف الأزمان في تعاقب حداتها، تختلف البيئات كذلك، فلكل حداثة بيئتها وظروفها ومقولاتها.

الحداثة الأوروبية

والحدثة التي تتداولها الألسن بيننا اليوم هي الحدثة الأوروبية ضمن خصوصياتها التاريخية والبيئية التي تتلخص في الثورة على قيم ما قبل النهضة الأوروبية، وهي قيم ذات أبعاد اجتماعية وسياسية ودينية ارتبطت بالإقطاع والكنيسة، فكان أن

جاءت الحدثة بمعطياتها في مجالات الحياة كافة، وكان من أسسها: الفردية، والعقلانية، والوضعية الفردية وما تلاها من حرية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، والعقلانية في المنهج العلمي في الكشف عن حقائق المادة، والوضعية في التعامل مع الواقع فحسب، بعيداً عن منطق الدين والغيب والميتافيزيقا(٣).

ولسنا هنا بصدد القول المفصل عن الحدثة في تعريفاتها وأسسها

وتجلياتها وعيوبها، بل في معرض الحديث عن موقعها من المصطلحات الأخرى ضمن عائلاتها، وقبالة العائلة الثانية المضادة لها. قلنا إنها حالة مرتبطة بزمان معين وبيئة معينة، وهي البيئة الأوروبية، والزمن الأوروبي من القرون الثلاثة السابقة، ولم تكن باقية دائمة، بل إن الفكر الأوروبي يتجه الآن إلى ما يسمونه ما بعد الحدثة(٤). والمهم الإشارة إلى أن هذه الحدثة بطابعها الأوروبي ليست مطلقة ولا صالحة لكل زمان ولكل بيئة، بل هي نسبية خاصة بسياقها الأوروبي، وليست قدراً للشعوب أو البيئات غير الأوروبية على الإطلاق. وهذا هو أساس الخلاف بين الشعوب التي تريد أن تفهم الحدثة ضمن ظروفها الخاصة، وأوروبا التي تريد فرض حداتها فرضاً بالإغواء حيناً، وبالقسر حيناً آخر.

أما المعاصرة فهي ليست الحدثة بما لها من مفهوم عن مرحلة من تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، بل هي تعبير عن النتاج الفكري للحالة الزمنية الحاضرة، وهي - كالحداثة - ليست مطلقة بل خاضعة لمؤثرات الزمان والمكان، كما هي خاضعة لما يعترى البشر من زل أو قصور، فزمانيتها الراهنة لا تعطيها صفة القداسة أو الصواب.

ولا يظن ظان أن المعاصرة مجرد انتماء للزمان الحاضر، بل

هي ذات خصوصية وتميز، فلكل أمة طريقة خاصة في معايشة العصر والتفاعل معه. فمثلما تتمايز الأمم في ثقافتها، تتمايز في تفاعلها مع العصر الذي تعيش فيه. فالأمم المتميزة في الهويات الثقافية معاصرات متميزة، وليست هناك في العصر الواحد معاصرت واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات، كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هي استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة في عصر ما(٥).

والجديد - كذلك - لا يرتبط بعصر معين، كارتباط المعاصرة بالزمان الحاضر، فكل فكر يعد جديداً بالقياس إلى ما قبله من فكر، حتى لو كان الأمر يتعلق بوقوع الفكر القديم والذي يليه من الجديد في العصور السحيقة من التاريخ، ولكن الجدة لها طابع سحري في النفوس، ولذلك تستخدم في معرض الترويج للأفكار،

حتى لو كانت غير صحيحة، فأنت بمجرد وصفك للفكرة أنها قديمة، وأخرى جديدة تكون قد أعطيت حكماً بالصواب للفكرة الجديدة، بينما واقع الأمر ليس كذلك، فكم من فكرة قديمة أثبتت واقعيته وصلاحها، وكم من فكرة جديدة حملت جرثومة فنانها وفسادها معها! وقد يكون العكس.

المهم أن يكون مقياس الصواب والخطأ في الموضوعية والعلمية والواقعية، وليس في القدم أو الجدة في حد ذاتها، كما يفعل المروجون للجديد في كل زمان ومكان(٦).

مواقف العمل والحركة

هذه جولة في عالم المصطلحات مفهوماً ومعنى، وإزالة لحالات الغبش والخط في التصور، ننتقل منها إلى مواقف العمل والحركة إزاء مصداقية هذه المصطلحات في أرض الواقع، ونحن بسبيل توجيه الثقافة إلى أن تأخذ طريقها إلى الفاعلية والبناء في المجتمع الإسلامي.

وقبل هذا لا بد من الإشارات إلى خارطة المواقف الفكرية السائدة إزاء هاتين الأسرتين من المصطلحات، ونستطيع أن نلخصها بمصطلحي الحدثة والأصالة.

يتحدث الباحثون والمفكرون عن ثلاثة مواقف أو اتجاهات من الفكر الحدائي العربي خاصة:

أولاً: الموقف المعارض للعرب وحدائهم ومفاهيمه عن الكون والإنسان والحياة.

ثانياً: الموقف المنبهر انبهاراً تاماً بالغرب، الأخذ منه كل شيء: محاسنه وسيئاته.

ثالثاً: ما يطلق عليه بالاتجاه التوفيقية، الذي يأخذ من التراث ما يراه مناسباً، ويأخذ من الغرب ما يراه صالحاً كذلك.

الحداثة بطابعها الأوربي ليست مطلقة ولا صالحة لكل زمان ولكل بيئة، بل هي نسبية خاصة بسياقها الأوربي، وليست قدراً للشعوب أو البيئات غير الأوروبية على الإطلاق

ثانياً : هناك مقولة صار يكررها كثير من المفكرين المتغربين، وهي أن لا حلول وسطى من التراث، فإما أن نقبله كله أو نرفضه كله. وهذه - في الواقع - مصادرة لمصلحة مقولة رفض التراث كله.. ثم يقول الغرب كله .. وهي مغالطة التقطها هؤلاء من المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي الذي قال: إن الحضارات تؤخذ كلها أو تترك كلها(٩). والحق أنه على المستوى العملي والواقعي لا الحضارة الإسلامية في تعاملها مع حضارة اليونان رفضت كل شيء أو أخذت كل شيء، ولا الحضارة الأوربية في عصر نهضتها رفضت كل شيء من الإسلام، أو أخذت كل شيء، بل مارس كل منهما الانتقاء، فقد رفض كل منهما ما يتنافى مع الأسس والثوابت المميزة لكل من حضارتيهما.

ثالثاً: لقد ذكرنا من قبل أن الدين الموحى به والنص الثابت

ليس من التراث، بل هو صانع التراث، وصانع الحاضر والمستقبل كذلك، وهو الأصل الخالد الثابت في الحضارة الإسلامية، وتبقى في التراث متغيرات ليست ملزمة لأحد، بل هي منطقة فراع يملؤها المشرع والحاكم والمصالح المرسل والمقاصد النافعة. والذي قال إن هناك فئة تؤمن بالتراث كله ولا تتجاوزوه فهو يريد من وراء حديثه التمويه والمصادرة والتصويت لمصلحة التيار

الذي يريد الغرب كله. إنهم يصنفون من يلتفت إلى التراث على أنه سلفي أشعري!! لماذا لا بد أن يكون الملتفت إلى التراث أشعرياً؟ لماذا لا يكون معتزلياً؟ لماذا لا يكون عقلياً؟ وهل التراث كله خرافة؟! (١٠).

وإذا قال الإمام الغزالي بشيء من الخرافة، فهل كان هو المسؤول أو الذين قلدوه هم المسؤولون؟! (١١). وهل على الناظر منا إلى التراث اليوم أن يأخذ مقولات الغزالي أو غيره على أنها مقولات صادقة لا تقبل المناقشة أو الرفض.

رابعاً : الحق الذي لا مرأى فيه، أن الحاضر بكل تعقيداته نسيج متشابك من الماضي والواقع بل المستورد، ولا يمكن لسياسي أو لوجه للثقافة أو مغير أن يتجاوز تأثير التراث والماضي سواء في حضارتنا، أو في حضارات الأمم الأخرى، وإن الأمر فيما يتعلق بحضارتنا وصلتها ببيئتنا وتفكيرنا وتاريخنا ربما يكون أكثر رسوخاً وأوضح بروزاً. وإنك لو حاولت أن تزيل خيوط التراث من هذا النسيج لبدت لك عملية التغيير صعبة وغير واقعية، لأنك تكون قد سرت ضد طبائع الأشياء، وركبت الأمور من غير أبوابها ومراكبها، والتاريخ الحديث والمعاصر شاهد على ذلك فقد ضاعت أدرج الرياح ومحاولات رضا بهلوي في إيران، وأمان خان في أفغانستان ومصطفى

هذا ما عليه أغلب من كتب عن الحداثة والأصالة، والموقف من الغرب (٧) ولا يكادون يخرجون عن هذا التقسيم، مع الإشارة إلى التداخلات القائمة بين ممثلي كل تيار، تداخلات قد تبلغ حد التناقض في بعض الأحيان، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التيار التوفيقى على المستوى العملي صار أكثر ميلاً إلى الثقافة الغربية بدعوى التعريف بها دون أخذ أي موقف منها، وربما صار التيار الأوسع مساحة، لأنه لا ينطلق من العداء للتراث، ولكنه - عملياً - يندفع إلى الحداثة الغربية بنشاط، ويبدو أنه يؤمن بسياسة

ومن المعلوم أن لكل تيار من هذه التيارات مسوغاته، وهذا لا يعني أن من يتصدى للحديث عن العلاقة بالتراث أو الغرب لا بد أن يضع نفسه في واحدة من هذه الخانات الثلاث بالضرورة، وإلا

فإننا سنبقى في الدوامة نفسها التي اعتدنا أن نواجهها منذ أن اتصلنا بالطارئ الغربي في العصر الاستعماري الحديث.

والحديث عن الخروج من هذه التقسيمات لا يعني أن نفتعل المواقف، ونلعب بالألفاظ بل لا بد من طرح متميز يأخذ بالحسبان التجارب المستفادة سواء في العلاقة بالتراث، أو العلاقة بالغرب في ضوء أكثر من قرنين من الزمن.

الفرضية التي أريد أن أنطلق منها، والتي أريد أن أمتحن مصداقيتها هي : كيف يمكن أن أكون معاصراً وحداثياً ومجدداً دون أن ألغي التراث ودون أن ألغي العلاقة بأوروبا، ودون أن أكون توفيقياً كذلك؟!؟

كما يبدو حقاً، أنها فرضية صعبة، والذي يقدم على دراستها يقبل على عمل خطير.

مقدمات لا بد منها

ولكننا قبل أن نقوم بهذا العمل، لا بد من الحديث عن مقدمات نراها ضرورية من التمهيد الذي يساعد على وضوح النظرية، وهذه المقدمات تتمثل في الإيضاحات الآتية:

أولاً : من قال : إن تراث أمة من الأمم هو عقبة في طريق تحررها وتفوقها؟

إن واقع الحال في نهضات الأمم يثبت أن تراثها كان سر قوتها، ومكمن فقرها، والنار لمسيرتها. والأمر نفسه ينطبق على أوروبا النهضة التي انطلقت من التراث اليوناني، بل والمسيحي، ولم تتخل عنهما في أحدث انطلاقاتها المعاصرة، وليس غريباً القول: إن الدين يلون طوابع الحياة السياسية والفكرية في أوروبا وأمريكا اليوم.

والأمكنة، بل هي حداثة ذات خصوصية أوروبية بكل ما لأوروبا من خصائص، وما فيها من مشكلات أفرزتها البيئة الكنسية والسياسية. فإذا كانت حداثتهم من دين أو ماض فلا يعني هذا أن تكون حداثة الأمم الأخرى بمكوناتها الفكرية ومؤثرات بيئاتها حداثة من دون ماض، أو دين كذلك. أضف إلى ذلك أن حداثة مجتمع منتج وغني ومستكبر ومهيمن ومالك لمقدرات الأمم بقاراتها كلها، ليست هي بالضرورة حداثة مجتمعات مستهلكة وفقيرة ومقيدة ومغلوبة على أمرها، وتحكم بغير إرادتها، وتنفذ ما يملى عليها (١٣).

والحق الذي لا شك فيه هو أن حداثة أوروبا هي العقبة التي تقف أمام نمونا وتقدمنا، لأن حداثة أوروبا هي قوتها وهيمنتها واستكبارها، ومحاولة جعل منجزاتها ذات صفات مطلقة، فقد بلغ بهم الغرور أن صاروا يتحدثون عن نهاية التاريخ على أيدي الحداثة الأوروبية بوصفها نموذجاً خالداً رست عند شاطئه سفن الحضارات كلها، وأنه لا مفر ولا ملجأ إلا بالرسو عند الشاطئ الأوربي شاطئ الأمان والعلم والتحضر، وأنه لقدرة كل الشعوب والحضارات أن تنتهي إلى ما انتهت إليه الحضارة الأوروبية بالاستسلام، أو بالصراع الذي ينتهي لا محالة بغلبة

القوة الأوروبية والعلم الأوربي (١٤).

وإن الأمم والحضارات على موعد مع هذا التحدي الكبير، فإما الرضا بالواقع والاستسلام، وإما الوقوف بما لديها من طاقات حضارية متميزة تصنع من خلالها نموذجها وحداثتها الخاصة بها، وعندئذ لن ينتهي التاريخ بنموذج حضاري واحد وحداثة غالبية وأبدية وقاهرة.

ثامناً: لا بد من التذكير على الدوام بأن الأصالة لا تعني الارتباط بالماضي، بل هي وعي بالواقع واتحاد به، وتوظيف للماضي لكونه جزءاً من الواقع وبهذا تصبح الأصالة مرادفة للمعاصرة، بل إنها معاصرة أعمق جذوراً وأكثر تحقيقاً للقوة في الشخصية والإنتاج وبناء الأسس الحضارية الفاعلة (١٥).

نعود إلى الفرضية التي انطلقنا منها وهي: كيف أكون معاصراً وحداثياً ومجدداً، دون أن ألغي التراث، ودون أن ألغي العلاقة بأوروبا، ودون أن أكون توفيقياً بين التراث وأوروبا كذلك؟

الحداثة في الإسلام تحقق هذه الفرضية بعدما قدمنا ليس بالصغوية التي يتصورها بعض الذين يحيطونها بشيء من التعقيد، يلقونها بأسلاك شائكة يجعلون معها التفكير حائراً متردداً، وهم يلقون بأوهامهم لينتهوا إلى ما يريدون ألا وهو: الحداثة بمفهومها الأوربي وحده. وهم بهذا يقولون: إن الإسلاميين

أتاتورك في تركيا، أقصد محاولاتهم في تغريب بلادهم وسلخها عن الماضي، وكانت الحصيلة مزيداً من التمسك بالتراث، ومزيداً من رفض الغرب.

خامساً: على الرغم من كل السلبيات التي يجرها الاستسلام للتراث وغض النظر عن عيوبه، فإنه لا يزال بأيدينا، نتعامل معه تعاملًا ذاتياً نفرز منه ما نشاء، ونرفض منه ما نشاء، والضعف التي يشكلها على نفوسنا بسحره ومثاليته يمكن تجاوزها بالنقد الذاتي، وإبراز الضغط الواقعي في حالة تعارض بعض موضوعات التراث مع هذا الواقع.

مشكلتنا الكبرى هي في التعامل مع الحداثة الغربية التي تفرض نفسها من الخارج فرضاً بالإغواء ووسائل الترفيق تارة، وبالقسر والإكراه تارة أخرى عن طريق البرامج المطبقة في

السياسة والتعليم والاجتماع، وهي البرامج المفروضة بحد السلاح على أيدي الحكومات الوطنية الموالية للغرب. هذه هي المشكلة!!

سادساً: إن الطريقة التي نتصورها للتعامل مع التراث هي أننا لا نرحل إليه لنعرض عليه مشكلاتنا، ليلحها بطريقة سحرية، بل هو الذي يرحل إلينا ليقدم لنا ما نراه أكثر معاصرة من معاصرنا، فليس كل

الذي في التراث قديماً، وقد يبقى جديداً فهناك قيم وثوابت في تراث الأمم تعبر عن ملامحها وخصائصها وعناصر الإبداع فيها. ومن الجدير بالذكر أن الموضوعات التي يرحل إلينا بها التراث ليست كل ما فيه وما عنده، بل هي الموضوعات التي لها قوة ضغط وصلاح وحيوية في حياتنا المعاصرة، ولن نجدنا أن نشرق أو نغرب في حلها. وما من شك في أننا نتخلى بكل حرية عن موضوعات كثيرة من التراث، لأنها بنت عصرها، وليس لها صفة الديمومة أو الحيوية التي تخولها الولوج إلى عصرنا، ومساعدتنا على حل مشكلاته.

ولهذا يصح القول: إن بعض التقليد لعناصر الماضي، أو التراث مستحسن ومفيد، خاصة حينما يؤخذ بوعي واجتهاد. إنك في هذه الحالة تجتهد في دراسة القديم فتري أنه جزء من وجودك وكيانك المعاصر، وأنه شفاء للحالة المرضية الراهنة في بعض الأحيان (١٦).

ونحن لا نتحدث -بطبيعة الحال- عن الوحي والنص الإلهي والنبوي لأن هذا من الثوابت التي لا اجتهاد فيها إلا في حالة الفهم والتفسير.

سابعاً: إن الحداثة التي يلحد إليها الذين يرون إلحاقنا حاضرنا وميراثنا بالغرب، لا يمكن أن تكون حداثة لكل العصور

وتعالج مشكلاته، فليست هي أحكاماً وشرائع لما فوق الواقع، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك أسباب لنزول القرآن كتاب العقيدة والأحكام معاً.

والوحي، على الرغم من مصدريته السماوية، فهو للأرض ومن عليها، توجيهاً وهداية، وإعماراً، وإسعاداً.

والإنسان في مسيرته الحياتية يستهدي بالوحي وتوجيهاته ويتكيف وفق متغيرات حياته كذلك. وقد أعطي مساحة من التحرك واسعة، ينظر فيها إلى المصالح، ويدبر بها المفاصد، ويطور أدواته، ويستثمر الأرض ويعمرها، ويذل صعوبات الطبيعة من حوله، ويتعاون مع بني جنسه من البشر دون أن يغير مقاصد الوحي ومرتكزات الشريعة، ودون أن يكون إلهاً، أو مفسداً في الأرض، كما رأينا من حركة الإنسان الأوربي في حديثه الجديدة.

إن الإسلام هو «الثورة الدائمة» على ما يستهلك من الواقع، ولا يستجيب لحركة الحياة من المتغيرات الكثيرة في هذه الحياة، فالتجديد في الفكر والحضارة بدأ بالإسلام نفسه، ونما وتطور على يد معتقيه الذين ساروا على هديه وتوجيهه، ولكنه لا يعد كل جديد صالحاً بالضرورة. فهناك جديد سيئ، وهناك قديم صالح، وهناك جديد صالح، وقديم فاسد.. المعيار ليس في قدم الفكرة أو جدتها، بل في صلاحها أو فسادها، والصلاح والفساد معياران يقرهما العقل الإنساني ومدركاته ومصالحه مستهدياً بذلك وحي الخالق وشرعه.

الموضوع - إذاً - ليس رفضاً للتراث أو أخذاً به كله ولا رفضاً لأوروبا أو ترحيباً بإنجازاتها، ولا هو حركة توفيق ومزج بين التراث وأوروبا. بل هو: الاستهداء بالدين لمعالجة الواقع، فبعد الأخذ بالأصل الأول، الدين وقيوميته عقيدة وشريعة ومنهجاً، تبقى الحرية والمساحة واسعة في التعامل مع الواقع وعلاج مشكلاته. فبعد يعالج ببعض أطروحات التراث، وقد يعالج ببعض أطروحات الصين، أو اليابان، أو أوروبا اليوم.

هناك ثابت هو الدين، وهناك مشروع إنساني عام بين الإنسان المسلم والإنسان الهندي والأمريكي الجنوبي، والأوربي. والمشارك الإنساني غالباً ما يكون في وسائل الحياة وحاجاتها، وليس في ثوابت الحضارة وأسسها، وهويات الأمم

المشترك الإنساني غالباً ما يكون في وسائل الحياة وحاجاتها، وليس في ثوابت الحضارات وأسسها، وهويات الأمم وشخصياتها

كيف يمكن أن أكون معاصراً وحدثياً ومجدداً، دون أن ألغي التراث، ودون أن ألغي العلاقة بأوروبا، ودون أن أكون توفيقياً بين التراث وأوروبا كذلك؟

يريدون أن يعودوا بالناس إلى الهراء أربعة عشر قرناً، وإنهم يريدون العودة إلى أبي لهب والنجاشي وكسرى وقيصر، ويريدون إعادة الأصنام ثانية حتى يطبقوا الشريعة الإسلامية، فضلاً عن أنهم يريدون العودة للناس إلى وسائل العيش البدائية، وإنكار إنجازات العلم والترف المعاصر!!

والحق أنه ما من عاقل يدعو إلى الأخذ بالإسلام إلا ويدرك تمام الإدراك أنه يواجه وضعاً مختلفاً عن الأوضاع القديمة، ويعلم أن عليه الإجابة من خلال الإسلام عن قضايا الزمن القائم ومشكلاته (١٦). وهذه هي الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أعداء الإسلام للإسلاميين.

الحدثية الحققة تتمثل في أن الإسلام والداعين إليه في هذا العصر، وهذه الحدثية وامتلاء الحياة بألوان الجديد، لا يغمضون أعينهم عن حركة الواقع المعاصر، ويرحلون إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، بل هم يعالجون الواقع بما يناسبه من أدوات ومفاهيم. على أن هذا يحتاج إلى بعض الإيضاح.

إن الأمر الذي يسكت عنه المتحدثون عن القديم والتراث، وربما الأصالة، هو أن الدين عقيدة وشريعة ليس محل نظر بالنسبة إلى الإسلاميين، أي إنهم يأخذون به أو لا يأخذون، بل هو الواقع نفسه وهو الذي صاغ الواقع منذ خمسة عشر قرناً، وأن حلول الدين وأطروحاته مرتبطة بالواقع وليست غريبة عنه، وهي موضوعية وواقعية لأنها تتسجم مع الطبيعة البشرية الفطرية من جانب، وهي ذات عراقية وعمق تاريخي في هذا الواقع، مما يجعلها أكثر تناغمًا مع مسيرته، وأكثر فاعلية في تحريكه.

إن الأخذين بالإسلام اليوم ينطلقون من الخطوط العريضة للإسلام، وهي ثوابته في العقيدة والتشريع، ثم ينظرون إلى الواقع الذي يعيشون فيه، ويحيطهم بمشكلاته وضغوطاته، فلا هم مع العقيدة والشريعة في الهواء دونما واقع، ولا هم مع واقع يفرضونه على العقيدة، ويحكمونه في التشريع.

فاله سبحانه وتعالى - حين وجه البشرية بقوله: « ويعلمهم الكتاب والحكمة » (البقرة: ١٢٩)، أراد لها عقيدة ربانية وشريعة وأحكاماً (١٧) تستهدي بها من هذه العقيدة دون أن تتنافى مع الواقع المادي للحياة، والواقع النفسي للإنسان. فالأحكام والشرائع الإلهية لها مقاصد ترتقي بالإنسان، وتصلح واقعه،

وشخصياتها(١٩).

والحكمة - حسب التوجيه النبوي - ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها وطبقها على سلوكه، وأفاد منها في حركة الواقع، بشرط أن تكون حكمة حقاً، وهي قد تكون وسيلة مادية أو فكرة عملية.

والحقيقة الجلية في هذا الحديث أن الإسلام معاصر، أي يعيش هذا العصر ويعالج مشكلاته القائمة، ومجدد، لأنه لا يعالج المشكلات الجديدة بالأساليب نفسها التي عالج بها القضايا القديمة، وهو حدثي لأن الحداثة خصوصية سلوكية للإنسان وصفة لأعماله(٢٠).

ولكل مجتمع سلوكياته المتميزة ضمن سياقه التاريخي والاجتماعي والقومي، وبهذا يكون هناك مجتمع أمريكي حدثي، ومجتمع إسلامي حدثي.

هذه هي الحقيقة التي لا يريد أن يقر بها «العلمانيون» أو الحداثيون المتغربون، ويريدون من الإسلام. لكي يكون حدثياً، أن يلبس لبوس الحداثة الأوروبية التي من جملة أسسها نفي الدين نفسه، أي نفي الإسلام نفسه!! أي إنك، لكي تكون حدثياً، لا بد أن تسلخ جلدك، وتلبس جلد غيرك، بل تغير ذاتك أيضاً!!

إنهم يتحدثون عن المجتمع المدني، ولا يريدون به إلا المجتمع الحدثي الذي تقوم أسسه على رفض الدين أو استبعاده عن الواقع العملي للحياة، بينما واقع الحال بالنسبة إلينا - نحن المسلمين - ثبت أن لنا مجتمعاً مدني إسلامي الذي لا يتنافى مع العقلانية، ولا يرفض مقولات العمل، ويسترشد بأقصى طاقات الوعي الإنساني وفعاليتها، ويبذل قصارى جهده في الاستخدام الأمثل للطبيعة والفكر والمادة لتحسين أوضاع الإنسان والرقى بعلاقاته ووسائله، ولكنه يبقى مجتمعاً مدنياً إسلامياً مستهدياً بروية الإسلام وخطوطه العريضة. وليس بالضرورة أن يكون مجتمعاً مدنياً أوروبياً(٢١).

إن الحداثة - في مفهومنا - ليست ظاهرة أوروبية أو قدراً أوروبياً لقارات الأرض كلها، وللشعوب كلها، بل هي ظاهرة إنسانية تاريخية عامة، توجد حيثما يوجد عمل إبداعي، كما توجد حيث توجد عقلانية، واستثمار أمثل لموارد الطبيعة، بل حيث نجد إنسانية الإنسان متحققة نجد عملاً حدثياً(٢٢). ولهذا لسنا أمام حداثة واحدة مقرها أوروبا، بل يمكن أن نجد حداثات متعددة في الصين واليابان وأرض الإسلام وبهدي الإسلام، ويبقى - من ثم - التفاوت في عطاء هذه الحداثات وتنافسها، فليفتح كل كتابه، وليقدم برهانه، وليطرح مقولاته، ليظهر من هو أهدى سبيلاً، وأصوب رأياً، وأعدل حكماً، وأوضح منهجاً، وأحسن عملاً، وأقوم أخلاقاً!!(٢٣).

وليس لبيئة مميزة على بيئة أخرى.

هذا حديث عن المبادئ، وليس خطة عمل لحداثة إسلامية ذات خصوصية إسلامية. وحين يتم الحديث عن الخطة يكون هناك حديث آخر عن المحفزات ذات الخصوصية من الدين، والوسائل ذات العمومية من العلم.

المراجع والهوامش:.....

١ - الفارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص٣٠.

٢- الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة، بحث للدكتور محمد عمارة في مجلة الجهاد، مالطا، ع١٠، ١٩٩١م، ص٩٣.

٣- الحداثة وما بعد الحداثة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، دت، دحل، ص١٢، وما بعدها.

٤ - المصدر نفسه، ص١٢٣.

٥- د. محمد عمارة، مجلة الجهاد، ع١٠٠، ١٩٩١م، ص٩٣.

٦- الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، دار الكلمة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص١١١.

٧- يتكرر على سبيل المثال:

أ- د. حسن حنفي، في فكرنا المعاصر، دار التنوير ط٢، ١٩٨٣م، ص٦٣.

ب- د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط١، ١٩٨٢م، ص٣٤.

٨- الإسلام في معركة الحضارة، ص١٢٢.

٩- في كتابه: الإسلام والغرب والمستقبل، ص٢٣، نضالاً عن كتاب: رحلة الفكر الإسلامي من التائر إلى التازم، د. السيد محمد الشاهد، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ص١١٧.

١٠- ينظر مثلاً: الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، ص٣٥.

١١- مجلة المسلم المعاصر، مقال إشكالية الأصالة والمعاصرة، د. أحمد محمود صبحي، ع٨١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص١٠٣.

١٢- رحلة الفكر الإسلامي، د. السيد محمد الشاهد، ص١١٠.

١٣- ينظر مقال حسن بن عامر «الشعر والحداثة»، مجلة الثقافة العربية، بتغازي، ليبيا، ع١٩٩١م، ص١٠٣.

١٤- الإسلام وصراع الحضارات، د. أحمد قديدي، كتاب الأمة، قطر، ط١، ١٩٨٥م، ص١٤. ومن المعلوم أن فكرة «نهاية التاريخ» من أفكار الكاتب الأمريكي الياباني الأصل يوكوهاما، أما فكرة صراع الحضارات فللكاتب اليهودي الأمريكي «هنتجتون».

١٥- ينظر في فكرنا المعاصر، د. حسن حنفي، ص٥١.

١٦- الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، ص١٠٩.

١٧- فسر الزمخشري الحكمة بالشريعة والأحكام، ينظر، الكشف، ج١، ص٢٢٩.

١٨- بحث «رسالة الجهاد والحداثة»، سالم المعروش، مجلة الجهاد، ع١٠٠، ١٩٩١م، ص١٢٤.

١٩- الغزو الفكري: وهم أم حقيقة، د. محمد عمارة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط١، ١٩٩٠م، ص٢١.

٢٠- بحث الدكتور محمد جواد لاريجاني، المجتمع المدني والحداثة، التوحيد، ع٧٧، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، ص١٠٢.

٢١- ينظر الملف الخاص بالمجتمع المدني، مجلة التوحيد، ع٩٧، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٢- ينظر بحث «المجتمع المدني والحداثة»، للدكتور محمد جواد لاريجاني، مجلة التوحيد، ع٧٧، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، ص١٠١.

٢٣- الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، ص١١٤.

* مجلة الفيصل - العدد ٢٩٠، ص٤٩ - ٥٧ الرياض، المملكة العربية السعودية.

قال أبو بكر الوراق : للقلب ستة أحوال - حياة، وموت،

وصحة، وسقم، ويقظة، ونوم.

فحياته الهدى، وموته الضلالة، وصحته الصفا،

وعلته الصلابة، ويقظته الذكر، ونومه الغفلة.